

الخطاب العربي بين المعيش والمأمول

كريم بن سعيد¹

إشراف: أ. بن سعيد محمد

إن تعريف اللغة لم يحقق الإجماع من حوله عند الباحثين القدامى أو المحدثين على حد سواء، وليس من همنا هنا نبش هذا التباين والتحقيق فيه، بقدر الجنوح إلى طرح من الأطاريح، يحاول بشيء من الموضوعية مقارنة نظرة توافقية تنشد اللغة في جوهرها من حيث المكونات والآفاق والوظيفة. إذن فما هي اللغة؟ وما مراحل نموها؟ وما نظريتها؟ وما كفايات التعاطي معها؟ ولعل المنطلق يكون من ماهيتها؟

اللغة مفهوما:

تعد اللغة إحدى أهم وسائل الاتصال والتخاطب فيما بين البشر، فهي أداة التفاهم فيما بينهم، إن الطفل يتفاعل أيما تفاعل مع اللغة التي تنتهي إلى مسامعه قبل نضج مهارة التواصل فإنك تجد الرضيع يتواصل مع أمه بإخراج مجموعة من الأصوات المنبعثة من حنجرته في شكل دببات نغماتية ليفصح بها عن حاجياته برغم عجزه عن توصيل ذلك لغة لما تستوي بعد عنده.

إن مراحل نمو اللغة وتطورها لدى الطفل يعين الدائرين من حوله في محيطه الخاص على تفهم رغباته وحثهم على التواصل معهم، إن اللغة عند الطفل من الأمارات التي تكون دليلا ومتكأ في الوقت نفسه في تحديد وتقويم نموه العقلي، لما لها من صلة وثيقة بين مختلف جهات النمو، ضف إلى أن اقتداراته التعبيرية واللغوية عما يجول بدواخله لأفضل مؤشر على تهيئته لمعرفة المحيط من حوله.

إن الطفل عند تعلمه اللغة في مراحلها المتعاقبة فإن ذلك ينضج ويفصح على مجالات تطوره ونموه: "ففي مطلع مرحلة الميلاد كان يخرج أصواتا مبهمه بنغمات معينة يحقق من وراء إخراجها غاياته وأهدافه"².

نظريات نشأة اللغة:

إن الحديث عن هموم اللغة ونشأتها يقتضى إطلالة بارقة على أدبيات نشأة اللغة بغية الوقوف بعدها عند نظرية ابن خلدون الاجتماعية، لما لها من صلة بجهتها الاجتماعية الإنسانية، إن النظرية الأقدم في السياق هذا جاءت برؤية مفادها؛ أن اللغة وحي وتوقيف وإلهام وكانت مرجعية هذه النظرية دينية، بحيث أن الله - عز وجل - ألهم النبي آدم - عليه السلام - لوضع الأسماء للدلالة عليها، وحجة أصحاب هذا المذهب في النص النقلي في قوله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

¹ طالب دكتوراه، جامعة وهران 1، أحمد بن بلة، كلية الفنون و الآداب

² حمد نايل الغريز، أحمد عبد اللطيف أبو اسعد، أديب عبد الله النوايسة، النمو اللغوي واضطرابات النطق والكلام جدار للكتاب العالمي، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى 2009؛ ص: 5.

الملائكة¹ يقول ابن فارس: "فكان ابن عباس يقول: علمه الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وغيرها"². إذن فاللغة هنا لاستنتاج وقف من الله - عز وجل - على النبي آدم - عليه السلام - ومن ورائه البشرية قاطبة، فلا حول ولا قوة للإنسان أمام نشأة اللغة في هذا الضرب من النظريات.

نظرية المواضعة أو الاصطلاح :

يقول ابن جني: "إن أصل اللغة لا بد فيها من المواضعة وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجون عن الإبانة عن الأشياء فيضعوا لكل منها سمة ولفظا يدل عليه"³. فابن جني في هذا التنصيص، اللغة عنده اصطلاح واتفاق وتواضع حتى كأنني به يدحض نظرية الوحي والإلهام، وهو ما فتح الباب واسعاً أمام ناقديه، بأن هذا الطرح خلو من البرهان العقلي أو النقلي أو حتى التاريخي، فهو يسبح عكس التيار الذي يؤطر قيام النظم الاجتماعية التي تعاف الارتجالية والاعتباطية.

نظرية المحاكاة : فحوى هذه النظرية؛ أن الأصوات الصادرة عن الإنسان، إنما هي في جوهرها تقليد لتلك الأصوات الطبيعية، لقد نقض اللغوي ابن جني هذا التصور بقوله: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوي الرياح، وحنين الرعد، وخريف الماء...، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد"⁴.

إن النقد الذي يوجه إلى هذه النظرية فإذا كانت اللغة البشرية كلها محاكاة، فما المحل الإعرابي للغة التي لا صلة لها من بعيد أو من قريب بمحاكاة الطبيعة؟ مع أن المحيط اللغوي يفرض مثل هذا الطرح بكل تجلياته ولا مجال إذن لإدارة الظهر لهذا الواقع اللغوي .

نظرية التنفيس: وتسعى كذلك للتعبير بدورها عن جانب من جوانب اللغة، ففيها استعان الإنسان بالأصوات - بعضها - للإبانة عن أحاسيسه؛ ألماً أو سروراً، أو نفوراً إلى غير ذلك من مختلف

¹ سورة البقرة؛ الآية: 31.

² ابن جني، هو أبو الفتح، هو عثمان بن جني النحوي الموصل، النمو اللغوي واضطرابات النطق والكلام من جدار للكتاب العالمي، عالم الكتب الحديث؛ الطبعة الأولى 2009؛ ص: 6
قال سبط بن الجوزي في "مرآة الزمان" كان أبوه عبداً رومياً مملوكاً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصل، واخذ العلم عن جماعة منهم، أبو علي الفارسي، وقرا عليه النحو عصد الدولة وكان يعظمه، وكان ثقة صدوقاً...
وقال السيوطي: مولده ثلاثين وثلاثمائة، وهو من احزم الناس بالنحو والتصريف، من مؤلفاته: سر الصناعة، الخصائص، وهو كتاب في أصول النحو المحسنين في توجيه كتاب سر الصناعة تكلم فيه عن حروف الهجاء لا غير.

القراءات الشاذة، و المنصف: شرح مشكلات الحماسة وغيرها في الشعر والنثر مات سنة إحدى وتسعين ومائتين وبلغ 90 سنة. عبد القادر البغدادي، تحقيق محمود محمد العمودي، تراجم العلماء والشعراء في الحاشية، بانث سعاد، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الاقلام 2012، ص، ص: 34.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ ابن جني، الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، دار الكتاب العربي، ج 1، بدون طبعة، ص، ص: 46 - 47.

الأحاسيس في الشأن هذا، فاللغة هنا تحرك الجانب الذاتي في نشأة اللغة، من بيان الإفصاح عما يدور بخلد الإنسان من مختلف الأحاسيس، ومنه تغدو في السياق هذا نمطا من أنماط التواصل البشري فتتخذ الأصوات سبل اتصالها. ففي هذه النظرية نجد إضافة البعد الذاتي اللغوي، فنظرية ما يعرف اصطلاحا؛ بالتنفيس أو التعبير، إنما هي في كنفها إفصاح عن المشاعر للذات الإنسانية وعالمها الخاص بها¹.

النظرية الاجتماعية عند ابن خلدون :

" فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله، وأساليهم في مخاطبتهم و كيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد كل لحظة و من كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم"².

نجد أن ابن خلدون في تنصيبه الأول يشير إلى أن الحاضنة الاجتماعية العربية هي المرجعية في اكتساب ملكة اللغة العربية ، فمن دون هذه المرجعية لا يمكن تعلم و اكتساب اللغة العربية. تبقى النظرية الاجتماعية عند ابن خلدون تقدم النموذج الاجتماعي في تعلم و اكتساب اللسان العربي. ففي المحصلة نرى أن اللغة تركيب وتكامل وتعالق بين هذه النظريات المتقدمة، فلا اللغة إلهام وحسب ! أولا هي تواضع واصطلاح وكفى ! ولا هي محاكاة بعينها ! ولا هي كذلك تنفيس بمعزل عما تقدم من نظريات !، فاللغة؛ هي هذا الكل المتكامل بضم هذه النظريات ببعضها يتشكل لدينا تصور شمولي عن نشأة اللغة لتصبح اللغة بعد هذا أداة طيعة توظف في التواصل فيما بين المجتمعات، هذا من جهة ووسيلة للوقوف عند درجات النماء العقلي والمعرفي والوجداني هذا من جهة ثانية، كما أنها أداة للإبانة عن دواخل الذات في التواصل مع الغير من جهة أخرى.

إن اللغة عند تعلمها تستدعي مقومات شتى منها؛ الفسيولوجي والعقلي والإطار الاجتماعي يكون معيننا خصبا لتهيئة شرائط التعلم، إن التذهن اللغوي ومنهجيات اكتساب اللغة لعملية من الأهمية بمكان عند القائمين على هذه العملية لما تحيل إليه من الوقوف عند حدود وكيفيات التعامل مع المتعاطين في هذا الحقل. فما حال اللسان العربي اليوم في الأمصار العربية؟ لا أزعم شخصا أن عربيتنا بخير فالازدواجية اللغوية، أو قل التعددية تصارع العربية في عقر دارها في أي مجتمع عربي، ولا أقف على استثناء في ذلك فالإنكليزية، أو الفرنسية أو هما معا بمثابة السرطان الذي يمخر كيان هذه اللغة خاصة في ظل الاستيلاء الثقافي والإحساس بالانهزامية أمام كل وافد لجهة الغرب، هذا لا يستقى منه أنني أحارب الألسنة الأجنبية، بل تعلمها أصبح يفرضه واقع الحياة اليومي، فهي لغات العلم والتكنولوجيا من نوافذها نطل على عالم أصبح في حدود القرية، بل المقصود من ذلك هو الحفاظ على عودها سالما

¹ أحمد نايل الغريب وآخرون ؛ ص:07.

² تاريخ ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، المجلد الأول، مقدمة؛ ص:643.

مستقيماً بعدها يوجه التفكير إلى التسلح بلغات العالم، ومنه الحفاظ على الهوية الثقافية واللغوية للقوم، يضاف إلى ما تقدم من عامل اللسان الدارج الذي أصبح ظاهرة تفرض سطوتها في المجتمعات العربية، فكل وطن عربي إلا وله لهجة، بل لهجات وهو ما يكرس في واقع الأمر إقليمية أو جهوية تخترق حجاب النسيج اللغوي، إن الطفل عندما يتوجه إلى المدرسة يجد نفسه أمام تعددية لغوية إلى جانب لغته الأم التي اكتسبها من أبويه، قال - صلى الله عليه وسلم - "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"¹، فيبقى الصراع قائماً في ذاته وتبقى هذه اللغة في صراع وجداني وفكري أمام طفل لا حول ولا قوة له في هذا السن أمام هذا التجاذب والحمام اللساني، بل يتعدى سلطان الدارج حدود الطفل إلى أشباه المثقفين الذين لما يتخلصوا بعد من عبودية اللسان الدارج فتراهم يزوجون كلامهم بكثير من مفردات هذا اللسان العامي.

فالحديث في هذا الشأن، يسوقنا حتماً إلى المنظومة الإعلامية بمختلف أشكالها؛ المرئية والمسموعة وحتى الخطية والالكترونية منها، فلا سبيل فيها سوى السعي بهدف تحقيق سبق الصحفي للوصول إلى مصادر الخبر على حساب لغة أصبحت لا تحترم فيها معياريتها ولا سلامة نسيجها ولا حتى أدنى جمالياتها، فأصبح التعاطي فيها من هذه الجهة تميزه السلبية، علماً وأنها تتعامل مع شرائح عريضة تنتقل في المجتمع، فعدواها تطال حتماً المتعاطين معها في هذا الحقل وإذا ما أضفنا عامل المقروئية إلى ما تقدم وما انحدرت إليه من مستويات رهيبة القراءة التي أصبحت تبعث على كثير القلق؛ لأن واقع الحال يكرس في مجمله أمية مقنعة تتجه بالمجتمع إلى دهاليز الظلام وإلى الانحدار السحيق.

فما السبيل إلى ردم هذه الهوة السحيقة التي تقف عائناً أمام الانتشار الطبيعي للعربية والتعامل السليم معها؟ يملكني إحساس يدور بخلايي يفرض علي نفسه بكل ثقل لرسم إجابة تتحدد في دور المؤسسة التعليمية التي تقف مرفوعة الهامة منتصبه القائمة شامخة شموخ العظماء، فهي تعاكس في مسراها هذا الواقع الراهن المتردي والتلاطم اللهجي، إذ تعد منارة تبدد غشاوة هذا الفقر والتمزق اللغويين، يتجلى ذلك في دور المؤسسة التعليمية التتوييري الذي تضطلع به كريان سفينة تسعى بالعربية إلى الوصول إلى شاطئ الأمان واستعادة الصحة اللغوية وعافيتها.

¹ احمد الورخلي، قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب من الأصل إلى ... 07 هـ / 513 هـ، مجلد 1، ص: 55، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2007، و ابن خلدون، المقدمة، ص، ص: 134 - 135.